مقدمة :

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد ..

يعد هذا البحث استكمالا لموضوع بحثي السابق (البنية الإحالية لضمائر الغيبة في القرآن الكريم [1] الذي تناول البنى الإحالية لضمائر الغيبة في القرآن، وتتبع أنواعها ودلالتها، ففي أثناء استقراء تلك البنى وتحليلها رصدت الباحثة ظواهر أسلوبية في استعمال ضمائر الغيبة في القرآن الكريم، ووجدتها مادة صالحة لتكون موضوعا لهذا البحث، فتتبعتها لإظهار دلالتها وبيان أثرها الأسلوبي.

والعلاقة بين القرآن الكريم والدرس اللغوي بمستوياته المختلفة وثيقة وظاهرة ،لاتقتصر على النظر في القرآن الكريم بهدف استنباط قواعد وأحكام عامة للعربية، بل تتعدى ذلك إلى إبراز خصائصه الأسلوبية التي يتميز بها، ورصد الظواهر اللغوية النصية التي تسهم في وحدة النص وتماسكه.

وتأتي أهمية هذه الدراسة من كونها تقوم على رصد الظواهر الأسلوبية في الإحالة القرآنية لضمائر الغيبة، فهي دراسة لسانية تستقرىء تلك الظواهر، وتبين آثارها ودلالتها. ولاتساع مجال التطبيق وكثرة الأمثلة المتعلقة ببعض الظواهر اكتفت الباحثة بشواهد منها لتمثل تلك الظواهر.

واعتمدت الباحثة في هذا البحث على المنهج الوصفي التحليلي، كما اعتمدت في أثناء التحليل على معطيات الدرس اللساني النصي الذي يهتم ببيان عناصر التماسك والترابط بين أجزاء النص، ويسعى إلى فهم النص وتفسيره استنادا إلى مقولات لغوية وغير لغوية.

ويهدف هذا البحث إلى :

١. الكشف عن الظواهر الأسلوبية التي تميزت بها الإحالة القرآنية بضمائر الغيبة.

٢. بيان الأثر الأسلوبي لهذه الظواهر ودلالتها.

كما اعتمدت الباحثة على تفسير"التحرير والتنوير" لابن عاشور؛ ليكون مجالا تطبيقيا للدراسة، وذلك لعنايته بموضوع الإحالة عناية فائقة، ولتتبع أسرارها والظواهر الأسلوبية

العدد ٥٢

١٢ربيع الثاني ١٤٣٩هـ

٣١ كانون الاول ٢٠١٧م

التي تميزت بها، كما أن آراء ابن عاشور تعد خلاصة لآراء المفسرين قبله، إذ استفاد منهم، واستدرك عليهم بتناول مالم يتناولوه من قبل.

توطئة :

حظيت الضمائر في الدراسات اللسانية النصية المعاصرة باهتمام شديد من الباحثين لكونها أداة اتساق بين أجزاء الخطاب، ومظهرا من مظاهر التماسك، ولأهميتها في تحقيق وظيفة الربط بين أجزاء النص.

وتربط ضمائر الغيبة بين أجزاء النص شكلا ودلالة، داخليا وخارجيا، وتكمن أهميتها في كونها" تحيل إلى عناصر سبق ذكرها في النص ... وأن للضمير المستتر (هو) ميزتين : الأولى : الغياب عن الدائرة الخطابية، والثانية : القدرة على إسناد أشياء معينة، وتجعل هاتان الميزتان هذا الضمير على قدر كبير من الأهمية في دراسة تماسك النصوص"(٢).

وقد أولى النصيون ضمائر الغيبة اهتماما كبيرا في دراساتهم اللسانية، وأبرزوا وظيفتها النصية في تحقيق التماسك النصي لكونها تقوم بعملية الربط الإحالي " الذي يمد جسور الاتصال بين الأجزاء المتباعدة في النص، إذ تقوم شبكة من العلاقات الإحالية بين العناصر المتباعدة في فضاء النص، فتجتمع في كل واحد (من تلك الأجزاء) عناصره متناغمة "(٣).

وقد تنبه بعض المفسرين إلى هذه الوظيفة، فتطرقوا إلى دور ضمائر الغيبة في تحقيق التماسك على مستوى الآية الواحدة، وعلى مستوى الآيات المتتالية أو السورة بشكل عام. كما اعتنى المفسرون عناية خاصة ببيان مرجع الضمير، واستعانوا بقرائن كثيرة لتحديده بدقة؛ واهتموا بتوجيهه توجيها يضمن اتساق الخطاب، كما يضمن في الوقت نفسه مناسبة الكلام لسياق الحال أو المقام؛ مما يدل على إدراكهم لمفهوم النصية، وقضايا التماسك النصي، فقد تناولوا في تحليلاتهم لمرجعية الضمير في القرآن بنية الإحالة، ودور المتلقي في معرفة مرجعية الضمير، وغير ذلك من القضايا المتعلقة بعلم اللغة النصي.

كما أن المفسرين تطرقوا إلى الظواهر الأسلوبية التي تميزت بها الإحالة القرآنية بضمائر الغيبة، فتتبعت الباحثة هذه الظواهر ورصدتها، ووضعت لكل ظاهرة أمثلة عليها

هادفة إلى بيان دورها في إثراء الدلالة وفي تماسك النص وانسجامه، وتمثلت تلك الظواهر في الآتي:

أولا : الاتساع الإحالي:

يرى النصيون أن العنصر الإشاري يجب أن يكون واضحا حتى تمكن الإحالة إليه، وينظرون إليه على أنه قسيم العنصر الإحالي، إذ لايمكن أن يكون للأخير قيمة دون الأول، فهو الذي يبينه ويوضحه، ويزيل الإبهام عنه. كما يرون أنه إذا عادت الإحالة إلى أكثر من عنصر إشاري معجمي أو نصي فسوف يشيع الاضطراب، ويختل النص، ويستحيل الفهم[٤]. غير أن ظاهرة الاتساع الإحالي أو تعدد الاحتمالات لمرجع الضمير وجدت في القرآن الكريم دون أن يختل النص، ويشيع فيه الاضطراب؛ وذلك لأن المقام أو السياق يسمح بذلك التعدد المقصود لأغراض دلالية؛ إذ إن "الاختلاف في مرجعية الضمير يظهر التماسك الدلالي، فالاحتمالات القائمة لمرجع الضمير كلها أمور دلالية تعتمد على الاختلاف في فهم الآية، وهذا الفهم يقوم على الدلالة، وهذا الاختلاف من عمل المتلقي"[٥].

والمقصود بظاهرة الاتساع الإحالي تعدد مرجع الضمير، أي جواز عود الضمير إلى أكثر من جهة، وصلاحيته لأن يعود على أشياء متنوعة سبقته " فيسبق ضمير الغائب مرجعان أو أكثر، ويجوز أن يرجع الضمير إلى كل واحد منهما، وإن ترجح ـ في بعض الأحيان ـ أن يرجع إلى واحد منها"[٦]، ويطلق ابن عاشور على هذه الخاصية مفهوم تعدد المحامل، أو تعدد الاحتمالات، ويرى أن الغاية منها تكثير المعاني بكثرة الاحتمالات، حيث يقول :" وقد تجيء الآيات محتملة عدة معان، واحتمالها مقصود تكثيرا لمعاني القرآن؛ ليأخذ كل منه على مقدار فهمه"[٧] .

والملاحظ على خاصية الاتساع الإحالي أنها وردت كثيرا في القرآن الكريم، فقد حصرها الأستاذ عبد الخالق عضيمة في ثمانية ومئة موضع، ورأى أنها دالة على إعجاز القرآن، إذ يقول : "أسلوب القرآن معجز، لايستطيع أحد أن يحيط بكل مراميه ومقاصده، فاحتمل كثيرا من المعاني وكثيرا من الوجوه ، ومن ذلك صلاحية ضمير الغائب لأن يعود على أشياء متنوعة سبقته "[٨]. فالمتأمل في تلك المواضع يستطيع أن يجزم أن تعدد مرجع الضمير مقصود، وأن وراءه غرضا بلاغيا، فهو يحقق ثراء دلاليا، ويستلزم ذلك صحة

الاحتمالات مع احتمال ترجيح بعضها على بعض، فلابد من صحة اعتبار كل معنى يشمله، وهذه الصحة تتحقق إذا لم ينشأ من الجمع بين هذه الاحتمالات تناقض، أو تعارض، أو فساد في المعنى. كما أنه يحمل إعجازا القصد منه تعجيز هؤلاء الذين نزل فيهم القرآن أن يأتوا بمثله.

ومن أمثلة الاتساع الإحالي في القرآن التي تناولها ابن عاشور بالتحليل قوله تعالى: { الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ } (البقرة : ١٤٦) حيث يرى أن الضمير المنصوب في (يَعْرِفُونه) لا يعود إلى تحويل القبلة لأنه لو كان كذلك لصارت الجملة تكريراً لمضمون قوله :{وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم } بل هو عائد إما إلى الرسول وإن لم يسبق ذكر لمعادٍ مناسب لضمير الغيبة، لكنه قد عُلم من الكلام السابق، وتكرر خطابه فيه من قوله: { وما جعلنا القبلة التي كنت عليها } (البقرة : ١٤٣) وقوله: { قد نرى تقلب وجهك } (البقرة : ١٤٤) وقوله : { فلنولينك قبلة } (البقرة : ١٤٤)وقوله : { فول وجهك }(البقرة : ١٤٤) فالإتيان بالضمير بطريق الغيبة من الالتفات، وهو على تقدير مضاف أي يعرفون صِدْقَهُ، وإما أن يعود إلى (الحق) في قوله السابق : { ليكتمون الحق} فيشمل رسالة الرسول وجميع ماجاء به، وإما إلى (العلم) في قوله : { من بعد ماجاءك من العلم}[٩].

ويرى ابن عاشور في قوله تعالى : {أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَآ ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُمْ مُّلْكاً عَظِيماً فَمِنْهُمْ مَّنْ ءَامَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيراً} (النساء : ٥٤ ، ٥٥) أن ضمير (فمنهم و منهم) يجوز أن يعود إلى ماعاد إليه ضمير (يحسدون) وهم { الذين أوتوا نصيبا من الكتاب} في الآية (٥١) ويجوز أن يعود إلى (آل إبراهيم)[١٠].

أما قوله تعالى:{ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِى السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ} (يوسف : ٤٢) فيقول: " وضميرا (فأنساه) و (ربه) يحتملان العود إلى (الذي) أي أنسى الشيطان الذي نجا أن يذكره لربه، فالذكر الثاني غير الذكر الأول . ويحتمل أن يعود الضميران إلى ماعاد إليه ضمير (وقال) أي يوسف عليه السلام أنساه الشيطان ذكر الله، فالذكر الثاني غير الذكر الأول. ولعل كلا

العدد ٥٢

١٢ربيع الثاني ١٤٣٩هـ

٣١ كانون الاول ٢٠١٧م

الاحتمالين مراد، وهو من بديع الإيجاز؛ وذلك أن نسيان يوسف عليه السّلام أن يَسأل الله إلهام الملِك تذكر شأنه كان من إلقاء الشيطان في أمنيته، وكان ذلك سبباً إلهياً في نسيان الساقي تذكير الملك، وكان ذلك عتاباً إلهياً ليوسف عليه السّلام على اشتغاله بعَون العباد دون استعانة ربه على خلاصه"[١١].

ونجد تعدد المحامل في قوله تعالى أيضا:{ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين .فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ} (البقرة:٣٦) إذ يرى ابن عاشور أن الضمير في قوله : (عنها) يجوز أن يعود إلى الشجرة؛ لأنها أقرب، وليتبين سبب الزلة وسبب الخروج من الجنة، إذ لو لم يجعل الضمير عائداً إلى الشجرة لخلت القصة عن ذكر سبب الخروج . و(عن) في أصل معناها أي أزلهما إزلالاً ناشئاً عن الشجرة أي عن الأكل منها، ويجوز كون الضمير للجنة وتكون (عن) على ظاهرها، والإزلال مجازاً في الإخراج بكره ،والمراد منه الهبوط من الجنة مكرهين كمن يزل عن موقفه فيسقط[١٢].

وفي هذه الآية نجد ابن عاشور يفسر تعدد الإحالة بقرائن نحوية ودلالية وبلاغية، فأما القرينة النحوية فتتمثل في عود الضمير على الأقرب، وأما الدلالية في تفسيره عود الضمير على الشجرة بأن ذلك يبين سبب الزلة وسبب الخروج من الجنة، وتظهر القرينة البلاغية في الاحتمال الثاني الذي يقول بعود الضمير على الجنة، حيث يصير الإزلال مجازا في الإخراج من الجنة مكرهين.

ويعتمد ابن عاشور على القرينة البلاغية في قوله تعالى:" كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ" (البقرة ٢١٣) حيث يقول: " والضمير في (ليحكم) راجع إلى الكتاب، فإسناد الحكم إلى الكتاب مجاز عقلي؛ لأنه مبين مابه الحكم، أو فعل (يحكم) مجاز في البيان، ويجوز رجوع الضمير إلى اسم الجلالة، أي أنزل الله الكتاب ليحكم بينهم، إسناد الحكم مجاز عقلي؛ لأنه المسبب له والآمر بالقضاء به"[١٣].نلاحظ أن تعدد الإحالة لضمير (يحكم) فسره ابن عاشور بقرينة بلاغية تعتمد على المجاز، فإسناد الفعل (يحكم) إلى الكتاب جائز؛ لأنه الذي يبين الحكم، وإسناده إلى الله؛ لأنه الحاكم في الحقيقة، والآمر بالقضاء به.

ومن الإحالات التي أجاز فيها ابن عاشور وجهين قوله تعالى:{ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَاناً وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ} (يوسف : ٧٧) إذ رأى جواز عود الضمير في قوله (أَسَرَّهَا) إلى جملة {قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ} على تأويل ذلك القول بمعنى المقالة، ويكون معنى (أسرها في نفسه) أنه تحملها ولم يظهر غضبا منها ، وجواز وجه آخر يتمثل في أن يكون ضمير الغيبة في(فأسرها) عائد إلى ما بعده وهو قوله تعالى: {قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَاناً} فتكون هذه الجملة تفسيرا للضمير في (أسرها) والإسرار في هذا الوجه مستعمل في حقيقته، وهو إخفاء الكلام عن أن يسمعه سامع ،أي قال في نفسه، وهو يشبه ضمير الشأن والقصة لكن تأنيثه بتأويل المقالة أو الكلمة[١٤].

وهكذا نجد أن المعاني المحتملة لمرجع الضمير في الأمثلة السابقة صحيحة، لم ينشأ عنها فساد في المعنى أو تناقض وتعارض، وبهذا يتحقق الثراء الدلالي المقصود، فالمعاني التي احتملتها الآيات تحتاج إلى عدة جمل لتأديتها، لكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أجملها في بنية إحالية واحدة، وذلك بإحلال الضمائر محل هذه المعاني.

وإذا كان ابن عاشور قد جوز تعدد المحامل في مواطن كثيرة دون ترجيح أحدها على الآخر فإنه في مواطن أخرى يرجح أحد المحامل على الآخر، أو يخالف آراء المفسرين طارحا رأيا جديدا في مرجع الإحالة لقرينة تبدت له، من هذه القرائن:

١. تناسق الضمائر:

والمقصود به اتحاد الضمائر المتناسقة في مرجع واحد، والترجيح باتحاد النسق أولى من تشتيت الضمائر وتفريقها، إذ يرى الزمخشري أن تفريق الضمائر على مراجع مختلفة يخل بالفصاحة، ولايجوز حمل القرآن عليه؛ لأن تفرق الضمائر يؤدي إلى تنافر النظم الذي هو أم إعجاز القرآن[١٥].فاطراد الضمائر لمرجع واحد أولى من مغايرتها، لتكون على سنن واحد في النظم." فيكون الكلام متناسقا آخذا بعضه بعنق بعض، وذلك باتصال الضمائر لشيء واحد"[١٦].

ويعد تناسق الضمائر قرينة من القرائن التي استعان بها ابن عاشور في تحديد المرجع (العنصر الإشاري) لضمير الغيبة، إذ اعتمد في بعض تحليلاته للعلاقة بين المحيل والمحال إليه على جهة اتحاد النسق واختلافه، ورأى أن مايؤدي إلى اتحاد النسق أولى

مما يؤدي إلى اختلافه، يقول "أن وجه النظم أن تكون الضمائر متناسقة غير مفككة ؛ فلذا يتعين أن تكون عائدة إلى معاد واحد"[١٧].

ومن الأمثلة التي اعتمد عليها ابن عاشور في تفسيره على قرينة تناسق الضمائر قوله تعالى : { وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً}(الكهف : ٤٥) حيث يرى أن ضمير (لهم) عائد إلى المشركين، كما دل عليه تناسق ضمائر الجمع الآتية في قوله : {وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ} – {وَعُرِضُوا }–{بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً} (الكهف: ٤٧–٤٨)[١٨]. كما نجد ذلك في قوله تعالى : {وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ أَوَلا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ}(البقرة : ٧٦، ٧٧) يقول ابن عاشور: "الأظهر أن الضمير في(لقوا) عائد إلى (بني اسرائيل) على نسق الضمائر السابقة في قوله : {أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا} (البقرة: ٧٥) ومابعده وأن الضمير المرفوع بقالوا عائد عليهم باعتبار فريق منهم وهم الذين أظهروا الإيمان نفاقا أو تفاديا من مر المقارعة والمحاجة بقرينة قوله:{آمنا} وذلك كثير في ضمائر الأمم والقبائل ونحوها[١٩].

وكذلك في قوله تعالى:{أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَآءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ }." وظاهر تناسق الضمائر يقتضي أن ضمير (أكثرهم) يعود إلى القوم المتحدث عنهم في قوله: { فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ } (المؤمنون : ٥٤) فيكون المعنى: أكثر المشركين من قريش كارهون للحق"[٢٠].

ويرجح ابن عاشور مرجع الضمير بقرينة تناسق الضمائر إذا لم تظهر قرينة أخرى تحدد المرجع الإشاري، فإن وجدت قرينة دلالية توضح المقصود، فإنه يضعها في الحسبان، ويجيز الوجهين معا دون ترجيح،وذلك نحو قوله تعالى:{وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ} (الأنعام:٥٢) فهو يرى أن ضمير الجمع في قوله :(من حسابهم) وقوله : (وما من حسابك عليهم) يجوز أن يكونا عائدين إلى (الذين يَدْعون ربّهم) وهو مَعَاد مَذْكور، وهو المناسب لتناسق الضمائر مع قوله:

العدد ٥٢

١٢ربيع الثاني ١٤٣٩هـ

٣١ كانون الاول ٢٠١٧م

(فتطردهم)ويجوز أن يكون الضميران عائدين إلى غير مذكور في الكلام ولكنّه معلوم من السياق الذي أشار إليه سبب النزول، فيعود الضميران إلى المشركين الذين سألوا طَرد ضعفاء المؤمنين من مجلس النبي (صلى الله عليه وسلم) فيكون ضمير (فتطردهم) عائداً إلى المؤمنين. ويختلف معاد الضميرين اعتماداً على ما يعيِّنه سياق الكلام[٢١].

ويرى في قوله تعالى:{ يَحذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِم }(التوبة:٦٤) أن ضميري(عليهم) و(تنبئهم) يجوز أن يعودا إلى المنافقين، وهو ظاهر تناسق الضمائر ومعادها، ويجوز أن يعود الضميران للمسلمين، ولا يضرّ تخالف الضميرين مع ضمير (قلوبهم) الذي هو للمنافقين لا محالة، لأنّ المعنى يَرُدُّ كلّ ضمير إلى ما يليق بأن يعود إليه"[٢٢]. وبذلك يؤكد ابن عاشور أنه لايصح تشتيت الضمائر إلا إذا كان السياق يرجع كل ضمير إلى ماينا سبه.

٢. السياق اللغوي:

والمقصود بالسياق اللغوي تلك الوسيلة الدالة على المحال إليه (المرجع أو العنصر الإشاري) وتشمل هذه القرينة كل مايرد في النص من شأنه أن يرشد المتلقي إلى المراد من العنصر الإحالي، وقد تتمثل هذه القرينة في عنصر ملفوظ، أو في معنى يفهم من الملفوظ .ويظهر دور هذه القرينة في تحديد العنصر الإشاري عند ابن عاشور في قوله تعالى : { وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} (الأنفال : ٦١) حيث يقول : " اعلم أنّ ضمير جمع الغائبين في قوله : {وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ} وقع في هذه الآية عقب ذكر طوائف في الآيات قبلَها منهم مشركون في قوله تعالى: { وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ } (الأنفال: ٤٨) ومنهم من قيل : إنّهم من أهل الكتاب، ومنهم من تردّدت فيهم أقوال المفسّرين : قيل : هم من أهل الكتاب ، وقيل : هم من المشركين، وذلك قوله :{إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ} (الأنفال: ٥٥، ٥٦) قيل : هم قريظة والنضير وبنو قينقاع، وقيل : هم من المشركين، فاحتمل أن يكون ضمير (جنحوا) عائداً إلى المشركين، أو عائداً إلى أهل الكتاب، أو عائداً إلى الفريقين كليهما. فالذين قالوا: إن الضمير عائد إلى المشركين، قالوا: كان هذا في أول الأمر حين قلة المسلمين، ثم نسخ بآية سورة براءة [٥] {فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ} ومن قالوا الضمير عائد إلى (أهل الكتاب) قالوا هذا حكم باق،

والجنوح إلى السلم إما بإعطاء الجزية أو بالموادعة. والوجه أن يعود الضمير إلى صنفي الكفار : من مشركين وأهل الكتاب، إذ وقع قبله ذكر الذين كفروا في قوله : {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا} (الأنفال: ٥٥) فالمشركون من العرب لا يقبل منهم إلا الإسلام بعد نزول آية براءة، فهي مخصصة العموم الذي في ضمير {جَنَحُوا} أو مبينة إجماله، وليست من النسخ في شيء. قال أبو بكر بن العربي: "أما من قال إنها منسوخة بقوله: {فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ} [التوبة: ٥] فدعوى، فإن شروط النسخ معدومة فيها كما بيناه في موضعه"[٢٣].

ويرى ابن عاشور أن عودة الضمير في قوله تعالى: { فَأَثَابَكُمْ غَمّاً بِغَمٍّ } (آل عمران: ١٥٣) إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، فيها بعد، ويرى أن الأظهر أنه ضمير اسم الجلالة؛ لأنه الموافق لقوله بعده {ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ} (آل عمران: ١٥٤) فهو عطف على {صرفكم} (آل عمران: ١٥٢) أي ترتب على الصرف إثابتكم[٢٤].

أما قوله تعالى : {وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ..} [(النساء :١٥٩) فيرى بعض المفسرين أن الضمير في (به) عائد على عيسى(ع) واختلفوا في ضمير(موته) فمنهم من قال أنه عائد على عيسى وآخرون يرون أنه عائد على أهل الكتاب أو على أحد، أما ابن عاشور فيخالف ذلك، حيث يرى أن الضمير في (به) عائد إلى الرفع المأخوذ من فعل رفعه الله إليه، والضمير في (موته) يعود إلى أحد أهل الكتاب، أي قبل أن يموت الكتابي[٢٥]. ويرى أن قوله تعالى : {وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ}يبطل تفسير أن الضمير في (موته) يعود على (عيسى) يقول:" ولا يخفى أنّ عموم قوله : {وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ}يبطل هذا التفسير؛لأنّ الَّذين يؤمنون به على حسب هذا التأويل هم الذين سيوجدون من أهل الكتاب لا جميعهم"[٢٦].

٣. مناسبة المقام:

أولت الدراسات اللسانية النصية المقام اهتماما كبيرا في عملية تحليل النصوص وتفسيرها، وأطلقت عليه مصطلح الموقفية أي السياق المصاحب للنص، وتعني تعامل محلل النص مع السياق الخارجي له للوصول إلى فهمه، فاللغة في نظر اللسانيين ماهي إلا أداة توصيلية تستعمل في سياق معين؛ لتحقق أهداف المتكلم ومقاصده.

ولايقتصر دور المقام لدى علماء النص على عملية فهم النص وتفسيره، بل يتعدى ذلك إلى تحقيق الترابط النصي، وذلك حينما تكون هناك تتابعات ليست مقبولة منطقيا في ظاهر النص، ولكنها مقبولة بالنظر إلى الموقف الاتصالي. كما أنه يفسر أمورا لايستطيع السياق اللغوي وحده تفسيرها، فعناصر الموقف الاتصالي هي التي تحدد قبول المنطوقات اللغوية أو عدم قبولها[٢٧].

وإذا كان النصيون قد أولوا دور السياق أو المقام أهمية في معرفة مرجعية الضمير خاصة إذا كانت مرجعية الضمير غامضة أو خارجية، فإن المفسرين أبرزوا دوره أيضا في تحديد مرجعية الضمير وفي ترجيح رأي على رأي آخر، ونجد ذلك في قوله تعالى : { وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لاَ يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلاَ عَن ظُهُورِهِمْ وَلاَ هُمْ ينصرون } (الأنبياء : ٣٨، ٤٠) يقول ابن عاشور: وضمير (يكفون) فيه وجهان : أحدهما بدا لي أن يكون الضمير عائداً إلى ملائكة العذاب فمعاد الضمير معلوم من المقام، ونظائر هذا المعاد كثيرة في القرآن وكلام العرب. ومعنى الكف على هذا الوجه : الإمساك وهو حقيقته، أي حين لا يمسك الملائكة اللفح بالنار عن وجوه المشركين. وتكون هذه الآية في معنى قوله تعالى :{ وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ}(الأنفال : ٥٠) فإن ذلك ضرب بسياط من نار ويكون ما هنا إنذارا بما سيلقونه يوم بدر كما أن آية الأنفال حكاية لما لَقُوه يوم بدر. والوجه الثاني : أن يكون ضمير (يكُفُّون) عائداً إلى (الذين كفروا) والكَفّ بمعنى الدّرْءِ والستر مجازاً بعلاقة اللزوم، أي حين لا يستطيعون أن يدفعوا النار عن وجوههم بأيديهم ولا عن ظهورهم، أي حين تحيط بهم النار مواجهَةً ومدابرَةً . وذِكر الظهور بعد ذكر الوجوه عن هذا الاحتمال احتراس لدفع توهم أنهم قد يكفّونها عن ظهورهم إن لم تشتغل أيديهم بكفها عن وجوههم . وهذا الوجه هو الذي اقتصر عليه جميعُ من لدينا كُتبهم من المفسرين، والوجه الأول أرجح معنى، لأنه المناسب مناسبة تامة للكافرين الحاضرين المقرعين ولتكذيبهم بالوعيد بالهلاك في قولهم: {مَتَى هَذَا الْوَعْدُ} ولقوله تعالى: {سَأُرِيكُمْ آيَاتِي} كما تقدم[٢٨].

العدد ٥٢

١٢ربيع الثاني ١٤٣٩هـ

٣١ كانون الاول ٢٠١٧م

٤. قرب المسافة :

يعد قرب المسافة بين الضمير ومرجعه قرينة لفظية، فإذا احتمل الضمير العود على شيئين كان عوده على الأقرب أرجح، إذ إن الأصل عند النحاة أن يعود الضمير إلى أقرب مذكور إليه إلا إذا وجدت قرينة تحيله إلى الأبعد، ويلجأ المفسرون إلى هذا الأصل حين يتعدد مرجع الضمير، ولم يكن هناك دليل يرجح عوده على غير الأقرب " أما إذا وجدت قرينة على المعنى، وأمن معها اللبس، فإن الضمير يمكن أن يعود إلى أبعد مذكور"[٢٩].

ومن المواضع التي تعدد فيها مرجع الضمير، وكان عوده على الأقرب أرجح عند ابن عاشور قوله تعالى: {وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ} (السجدة:٧-٩).فالضمير المنصوب في { سَوَّاهُ } عائد إلى {نَسْلَهُ } لأنه أقرب مذكور[٣٠].

وكذلك في قوله تعالى : {مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلاَ تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ} (التوبة:٣٦). فالضمير المجرور بفي عائد إلى الأربعة الحرم؛ لأنها أقرب مذكور، ولأنه الأنسب بسياق التحذير من ارتكاب الظلم فيها[٣١].

ويقول في قوله تعالى : {وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال يابشرى هذا غلام وأسروه بضاعة والله عليم بما يعملون. وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ} (يوسف: ٢٠) يرى بعض المفسرين أن ضمير الجمع في (أسروه) عائد على إخوة يوسف عليه السلام، في حين يرى ابن عاشور أن معنى (أسروه) أخفوه، وأن ضمير الجمع للسيارة لامحالة[٣٢]. ويقول في (شروه)" توهموا الضمير عائدا إلى المصريين، مع أن معاده واضح وقريب، وهو (سيارة) من قوله {وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ} (يوسف: ١٩)[٣٣]. ويدلل ابن عاشور على صحة عودة الضمير إلى (سيارة) بقوله : " وحسبك شاهدا على ذلك قوله : (وكانوا فيه من الزاهدين) أما الذي اشتراه فهو فيه من الراغبين، ألا ترى إلى قوله لامرأته (أكرمي مثواه)"[٣٤].

٥. القصدية :

يعد القصد قرينة معنوية عقلية منطقية لتحديد المرجع الإشاري عند ابن عاشور، ويعني أن سبب ترجيح مرجع إشاري على آخر أنه محور الكلام وغايته، ومن ذلك قوله تعالى :{ فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ

أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}(البقرة : ٢٧٥) يقول ابن عاشور:" فالضمير في (وأمره) فرضوا فيه احتمالات يرجع بعضها إلى رجوع الضمير إلى (من جاءه) وبعضها إلى رجوعه إلى (ما سلف) والأظهر أنّه راجع إلى (من جاءه) لأنّه المقصود، وأنّ معنى (وأمره إلى الله) أنّ أمر جزائه على الانتهاء موكول إلى الله تعالى، وهذا من الإيهام المقصود منه التفخيم. فالمقصود الوعد بقرينة مقابلته بالوعيد في قوله : {وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[٣٥].

وتظهر هذه القرينة عند ابن عاشور في تفسير قوله تعالى : {وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلاحاً يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا} (النساء:٣٥) إذ يرى أن الظاهريوحي أن الضمير عائد إلى الحكمين؛ لأنهما المسوق لهما الكلام، واقتصر على إرادة الإصلاح؛ لأنها يجب أن تكون المقصد لولاة الأمور والحكمين[٣٦]، في حين يرى بعض المفسرين أن الضمير عائد على الزوجين.

ويرى في قوله تعالى : {وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم وَلاَ تَكُونُواْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ } [البقرة: ٤١] أن الضمير المجرور في (به) ظاهره أنه عائد إلى (ما أنزلت) لأنه المقصود، وأن القول بأن الضمير عائد على(مامعكم) وهو التوراة فيه تكلف[٣٧].

٦. تعميم الحكم :

يعد التعميم قرينة معنوية، وتظهر هذه القرينة حين يسبق الضمير مراجع إشارية تصلح أن يشملها الحكم الذي ورد فيه ضمير الغائب، فيصبح تعميم الحكم حينئذ أولى من تخصيصه، وذلك نحو قوله تعالى:{وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ } (البقرة:٤٦).

حيث اختلف المفسرون في معاد ضمير (إنها) فقيل عائد إلى الصلاة، والمعنى إن الصلاة تصعب على النفوس؛ لأنها سجن للنفس، وقيل الضمير للاستعانة بالصبر والصلاة المأخوذة من (استعينوا)على حد { اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى } (المائدة: ٨) وقيل راجع إلى المأمورات المتقدمة من قوله تعالى: { اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ }(البقرة: ٤٠) إلى قوله:{ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ }(البقرة: ٤٥) وهذا الأخير مما جوزه صاحب(الكشاف) ولعله من مبتكراته، وهذا أوضح الأقوال وأجمعها والمحامل مُرادة[٣٨]. فابن عاشور في بيانه

لمرجع الإحالة في (إنها) ذكر آراء المفسرين، وجوز تعدد الإحالة في مرجع ضمير(إنها) لكنه مال إلى رأي الزمخشري لتعميم الحكم على المأمورات المذكورة سابقا. ومما سبق نجد أن الضمير قد يكون محيلا إحالة مزدوجة على الاحتمالات القائمة مرة إلى عنصر سابق أو عنصرين، ومرة أخرى إلى خطاب بأكمله؛ ممايساهم بشكل فعال في اتساق الخطاب القرآني.

ومن المواضع التي خالف فيها ابن عاشور المفسرين في عودة الضمير على مرجعه قوله تعالى: { قُلْ لا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ} [الأنعام:١٤٥] إذ يرى بعض المفسرين أن الضمير في قوله تعالى (فإنه رجس) عائد إلى لحم الخنزير، أما ابن عاشور فيقول: " والأظهر أن يعود إلى جميع ماقبله، وأن إفراد الضمير على تأويله بالمذكور، أي فإن المذكور رجس كما يفرد اسم الإشارة مثل قوله " {وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً }وإن كان الضمير عائدا إلى الثلاثة بتأويل المذكور كان قوله: {فإنه رجس} تنبيها على علة التحريم وأنها لدفع مفسدة تحصل من كل هذه الأشياء.."[٣٩].

ومما سبق يتضح لنا أن ترجيحات ابن عاشور كانت مبنية على أسس وقرائن، وهذا ماأكد عليه د. تمام حسان بقوله :" وإذا كان للضمير مرجعان أو أكثر مع التفاوت في القوة ، فوجب أن يعود على الأقوى؛ ذلك لأن التناسب بين الضمير ومرجعه من حسن النظم وتآلف الكلام ، وبه يحقق الفهم "[٤٠].

ثانيا : العدول الإحالي:

ويحدث هذا العدول حين يتوقع المتلقي استعمال ضمير ما بناء على ماقدمه السياق، لكنه يفاجأ باستعمال ضمير آخر مخالف لما سبق، وقد عُرفت هذه الظاهرة بالالتفات، وتعني المخالفة بين الضمائر، وعرّفها البلاغيون بأنها " التعبير عن معنى بطريق من الطرق الثلاثة (التكلم، أو الخطاب، أو الغيبة) بعد التعبير عنه بطريق آخر منها "[٤١]. فالأصل أن تتطابق الضمائر مع مراجعها وفقا للجهة (غائب، ومخاطب، ومتكلم) لكن قد يعدل عن ذلك الأصل حيث يأتي الضمير مخالفا لمرجعه في الجهة، لأغراض بلاغية ودلالية، ويرى البلاغيون أن للالتفات فائدة عامة وفوائد يقتضيها المقام، أما الفائدة العامة فهي أن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن تطرية لنشاط

العدد ٥٢

١٢ربيع الثاني ١٤٣٩هـ
٣١ كانون الاول ٢٠١٧م

السامع، وإيقاظا للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد، وأما الفائدة التي يقتضيها المقام فهي إذا التفت المتكلم يكون لهذه الالتفاتة فائدة غير العامة[٤٢].

والالتفات أو العدول الإحالي شائع في القرآن الكريم، ومن مواضع العدول الإحالي التي تناولها ابن عاشور في تفسيره مبينا دلالتها مايأتي:

١. العدول من ضمير الخطاب إلى ضمير الغيبة:

ومن أمثلة الانتقال من ضمير الخطاب إلى ضمير الغيبة قوله تعالى: {وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ} (الأنعام:٣، ٤) يقول ابن عاشور:" والخطاب لجميع السامعين، فدخل فيه الكافِرون، وهم المقصود الأول من هذا الخطاب؛ لأنّه تعليم وإيقاظ بالنسبة إليهم وتذكير بالنسبة إلى المؤمنين. وضمائر جمع الغائبين مراد منها المشركون الذين هم بعض من شملته ضمائر الخطاب في الآية التي قبلها، ففي العدول عن الخطاب إلى الغيبة بالنسبة إليهم التفات أوجبه تشهيرهم بهذا الحال الذميم، تنصيصاً على ذلك، وإعراضاً عن خطابهم، وتمحيضاً للخطاب للمؤمنين، وهو من أحسن الالتفات، لأنّ الالتفات يحسنّه أن يكون له مقتضٍ زائد على نقل الكلام من أسلوب إلى أسلوب المرادُ منه تجديد نشاط السامع[٤٣].

وفي قوله تعالى:{ قَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ} (البقرة : ٨٨) يرى ابن عاشور أن في الآية التفات من الخطاب إلى الغيبة وإبعاد لهم عن مقام الحضور، فهو من الالتفات الذي نكتته أن ما أجري على المخاطب من صفات النقص والفظاعة قد أوجب إبعاده عن البال وإعراضَ البال عنه، فيشار إلى هذا الإبعاد بخطابه بخطاب البعد فهو كناية .

وقد حسَّن الالتفاتَ أنه مؤذن بانتقال الكلام إلى سوء مقابلتهم للدعوة المحمدية، وهو غرض جديد فإنهم لما تحدث عنهم بما هو من شؤونهم مع أنبيائهم وجه الخطاب إليهم، ولما أُريد الحديث عنهم في إعراضهم عن النبي (صلى الله عليه وسلم) صار الخطاب جارياً مع المؤمنين وأُجرى على اليهود ضمير الغيبة. على أنه يحتمل أن قولهم (قلوبنا غلف) لم يصرحوا به علَنا، ويدل لذلك أن أسلوب الخطاب جرى على الغيبة من مبدأ هذه

العدد ٥٢

١٢ربيع الثاني ١٤٣٩هـ

٣١ كانون الاول ٢٠١٧م

الآية إلى قوله تعالى : {وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ} (البقرة:٩٢)[٤٤].

٤. العدول من ضمير الغيبة الى الخطاب:

ومن أمثلة هذا النوع قوله تعالى: {وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ} (الأعراف : ١٩٣) فمُقتضى الظاهر أن يقال : وإن يدعوهم إلى الهدى لا يتبعوهم، فيكون العدول عن طريق الغيبة إلى طريق الخطاب التفاتا من الغيبة إلى الخطاب توجهاً إليهم بالخطاب؛ لأن الخطاب أوقع في الدمغ بالحجة[٤٥].

ومنه أيضا قوله تعالى:{ إن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَت وأن الله مع المؤمنين} (الأنفال: ١٩) فجمهور المفسرين جعلوا الخطاب موجهاً إلى المشركين، فيكون الكلام اعتراضاً خوطب به المشركون في خلال خطابات المسلمين بمناسبة قوله : {ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ} (الأنفال: ١٨) والخطاب التفات من طريق الغيبة الذي اقتضاه قوله : ({وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ} (الأنفال: ١٨)[٤٦].

أما قوله تعالى : { فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَآؤُمُ اقْرَؤُاْ كِتَابِيَهْ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ فَهُوَ فِي عِيشة راضية فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ كُلُواْ وَاشْرَبُواْ هَنِيئَاً بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى الأيامِ الْخَالِيَةِ } (الحاقة : ١٩: ٢٤) فيقول ابن عاشور فيه : " إنما أفردت ضمائر الفريق الذي أوتي كتابه بيمينه فيما تقدم، ثم جاء الضمير ضمير جمع عند حكاية خطابهم؛ لأن هذه الضمائر السابقة حُكيت معها أفعال مما يتلبس بكل فرد من الفريق عند إتمام حسابه. وأما ضمير (كلوا واشربوا) فهو خطاب لجميع الفريق بعد حلولهم في الجنة، كما يدخل الضيوف إلى المأدبة فيُحيّي كل داخل منهم بكلام يخصه فإذا استقروا أقبل عليهم مضيِّفهم بعبارات الإكرام [٤٧].

٣. العدول من ضمير المتكلم إلى ضمير الغيبة:

ونجد هذا العدول في قوله تعالى :{ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ} (الأعراف : ١١ ، ١٣) فضمير(قال) عائد إلى معلوم من المقام أي قال اللَّهُ تعالى بقرينة قوله: {ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ} وكان مقتضى الظاهر أن يقال : (قُلنا) فكان العدول إلى ضمير الغائب التفاتاً،

العدد ٥٢

١٢ربيع الثاني ١٤٣٩هـ

٣١ كانون الاول ٢٠١٧م

نكتته تحويل مقام الكلام، إذ كان المقامُ مقام أمرٍ للملائكة ومن في زمرتهم فصار مقام توبيخ لإبليس خاصة[٤٨].

٤. العدول من ضمير الغيبة الى ضمير التكلم:

ومن أمثلة هذا النوع قوله تعالى :{إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ شَاكِراً لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ} (النحل١٢٠.١٢٢). فضمير(آتيناه) التفات من الغيبة إلى التكلّم تفنّناً في الأسلوب لتَوَالي ثلاثة ضمائر غيبة[٤٩].

ويبين ابن عاشور الأثر الأسلوبي لهذا النوع من الالتفات في قوله تعالى أيضا: {أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً} (الفرقان :٤٥،٤٦) فالالتفات من الغيبة إلى التكلم في قوله: (ثم جعلنا)لأن ضمير المتكلم أدخل في الامتنان من ضمير الغائب، فهو مشعر بأن هذا الجعل نعمة، وهي نعمة النور الذي به تميَز أحوال المرئيات، وعليه فقوله تعالى: (ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً)ارتقاء في المنّة[٥٠].

وفي قوله تعالى : {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا}(فاطر : ٢٧) يرى ابن عاشور أن الالتفات من الغيبة إلى التكلم في قوله: (أنزل) وقوله : (أخرجنا) لأن الاسم الظاهر أنسب بمقام الاستدلال على القدرة ؛لأنه الاسم الجامع لمعاني الصفات وضمير التكلم أنسب بِما فيهِ من امتنان[٥١].

ثالثا : الاستخدام :

هو أن يذكر لفظ له معنيان، فيراد به أحدهما، ثم يراد بالضمير الراجع إلى ذلك اللفظ معناه الآخر، أو يراد بأحد ضميريه أحد معنييه ثم بالآخر معناه الآخر[٥٢]. يقول ابن عاشور :" أصل الضمير أن يعود إلى لفظ باعتبار مدلوله، وقد يعود إلى لفظ دون مدلوله نحو قولك : لك درهم ونصفه أي نصف الدرهم لا الدرهم الذي أعطيته إياه، والاستخدام أشد من ذلك؛ لأنه عود الضمير على اللفظ مع مدلول آخر"[٥٣]. وقد تناول ابن عاشور البنية الإحالية لضمير الغيبة التي برزت فيها هذه الظاهرة بالتحليل، ومن ذلك قوله تعالى:{ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْأِنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ} (سورة

المؤمنون :١٢، ١٣) إذ يرى أن ضمير جعلناه عائد إلى الإنسان باعتبار كونه نسلا لآدم، فيكون في الضمير استخدام؛ لأن المقصود بالإنسان آدم عليه السلام[٥٤]. وفي قوله تعالى : {وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ}(آل عمران : ١١٥) يرى أن الضّمير المنصوب عائد إلى (خير) بتأويل (خير) بجزاء فعل الخير على طريقة الاستخدام[٥٥].

كما يرى ابن عاشور أن الضمير في قوله تعالى {ولَقَدْ كُنتُم تمنون الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ } (آل عمران : ١٤٣)راجع إلى الموت، بمعنى أسبابه، تنزيلاً لرؤية أسبابه منزلة رؤيته، وهو كالاستخدام، وعنده أنَّه أقرب من الاستخدام؛ لأنَّه عاد إلى أسباب الموت باعتبار تنزيلها منزلة الموت[٥٦].

وقد يلجأ ابن عاشور إلى تفسير الإحالة بالاستخدام دون تقدير مصدر محذوف، وذلك في مثل قوله تعالى :{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ} (المائدة : ١٠١ ، ١٠٢) يقول : وضمير (سألها) جُوّز أن يكون عائداً إلى مصدر مأخوذ من الكلام غير مذكور دلّ عليه فعل (تسألوا) أي سأل المسألة، فيكون الضمير منصوباً على المفعولية المطلقة. وجرى جمهور المفسّرين على تقدير مضاف، أي سأل أمثالها. والمماثلة في ضآلة الجدوى . والأحسن عندي أن يكون ضمير (سألها) عائداً إلى (أشياء)أي إلى لفظه دون مدلوله. فالتقدير : قد سأل أشياء قومٌ من قبلكم. وعدّي فعل (سأل)إلى الضمير على حذف حرف الجرّ، وعلى هذا المعنى يكون الكلام على طريقة قريبة من طريقة الاستخدام بل هي أحقّ من الاستخدام[٥٧].

ومن الإحالات التي يعود فيها الضمير على اللفظ دون المعنى قوله تعالى : {وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا} (سورة النساء: ٨٦) فالمقصود ردوا مثلها ، فالضمير في (ردوها) عائد إلى لفظ (تحية) دون مدلولها، لظهور تعذر ذات التحية[٥٨].

وكذلك في قوله تعالى : { يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ

مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالاً وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}(النساء : ١٧٦).

فمعاد ضمير (هو) وهاء (يرثها) إلى اللفظين لاإلى الذاتين، إذ ليس المراد أن المرء الذي هلك يرث أخته التي لها نصف ماترك، بل المراد والمرء يرث أختا إن لم يكن لها ولد[٥٩].

ومنه أيضا قوله تعالى : {وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ} (الشعراء:١٩٦) فالضمير مؤول بمعنى مسماه، فكما يطلق اسم الشيء على معناه، كذلك يطلق ضمير الاسم على معناه، فالمعنى أن ماجاء به القرآن موجود في كتب الأولين، وليس ذات القرآن بألفاظه ومعانيه[٦٠].

رابعا :تشابه الضمائر واختلاف المعاد :

يرى المفسرون أن الأصل توافق الضمائر حذرا من التشتيت، وأن تنافر الضمائر وتشتتها مخرج للقرآن عن إعجازه؛ لأنه يؤدي إلى تنافر النظم الذي هو أم إعجاز القرآن، ومراعاته أهم مايجب على المفسر[٦١]، غير أن هناك من الظواهر الإحالية التي اهتم بها المفسرون، ومنهم ابن عاشور، وهي ظاهرة صرف الضمائر المتشابهة إلى معادين بقرينة يقول :" ومن بديع تفنن القرآن توزيع معاد الضمائر في هذه الآية مع تماثلها في اللفظ، وهذا يتدرج في محسن الجمع مع التفريق"[٦٢]، ووضح ابن عاشور دور قرينة السياق في بيان ذلك، ففي قوله تعالى : {وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا} (الروم:٩) يرى أن ضمير جمع المذكر في قوله(عمروها) راجع أولهما إلى ما يرجع إليه ضمير (أثاروا) وثانيهما إلى مارجع إليه ضمير (يسيروا في الأرض) ويرى أن قرينة صرف الضمائر المتشابهة هي سياق الكلام، أي عمر الذين من قبل أهل العصر الأرض أكثر مما عمرها أهل العصر[٦٣].

وفي آيات أخرى نجد تشابه ضميري الجمع واختلاف معادهما نحو قوله تعالى : { فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إِلاَّ كَبِيراً لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ } (الأنبياء : ٥٨) فالضميران البارزان في (جعلهم) وفي (لهم) عائدان إلى الأصنام بتنزيلها منزلة العاقل، وضمير(لعلهم) عائد إلى قوم إبراهيم، والقرينة تصرف الضمائر المتماثلة إلى مصارفها[٦٤].

كما نجد ذلك في قوله تعالى : {وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}(الحشر: ٩) فضمير(صدورهم) عائد إلى (الذين تبوأوا الدار) وضمير (أوتوا) عائد إلى (من هاجر إليهم) لأن من هاجر جماعة من المهاجرين، فروعي في الضمير معنى(من) بدون لفظها، وهذان الضميران وإن كانا ضميري غيبة، وكانا مقتربين، فالسامع يرد كل ضمير إلى معاده بحسب السياق[٦٥].

وفي قوله تعالى : { يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُمْ مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ . قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ } (يونس : ٥٧، ٥٨) يبدو لأول وهلة أن العنصرين الإحاليين يحيلان على مرجع واحد لكن مع التأمل يتضح أن مرجعيهما مختلفان، ويبرز دور القرينة في تحديدهما، فالضميران في (يفرحوا) و (يجمعون) متشابهان لكنهما لا يعودان إلى المرجع نفسه، فضمير (يجمعون) عائد إلى الناس في قوله : (يا آيها الناس) بقرينة السياق، وليس عائدا إلى ما عاد إليه ضمير (يفرحوا) العائد على (المؤمنين) فإن القرائن تصرف الضمائر المتشابهة إلى مصارفها[٦٦].

أما قوله تعالى :{ وَاتَّخَذُواْ مِن دُونِ اللَّهِ ءالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزّاً كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً} (مريم: ٨١،٨٢) فيرى ابن عاشور أن ضمير (اتخذوا) عائد إلى الذين أشركوا؛ لأن الكلام جرى على بعض منهم، وأجرى على الآلهة ضمير العاقل في (ليكونوا) لأن المشركين الذين اتخذوهم توهموهم عقلاء، والضميران في قوله : (سيكفرون) و(يكونون) يجوز أن يكونا عائدين إلى آلهة، والأظهر أن ضمير (سيكفرون) عائد إلى المشركين، أي سيكفر المشركون بعبادة الآلهة، وضمير (يكونون) للآلهة، وفيه تشتيت للضمائر، ولاضير في ذلك إذا كان السياق يرجع كلا إلى ماياسبه[٦٧].

<u>خامسا :إفراد الضمير وجمعه:</u>

الأصل في العلاقة بين الضمير ومرجعه أن يطابق العنصر الإشاري (المرجع) العنصر الإحالي (الضمير) في النوع والعدد، فالمطابقة تقود المتلقي إلى الربط بين الضمير

ومرجعه، وهذا الأصل هو ماجاء عليه القرآن الكريم في مواضع كثيرة، غير أنه ورد في القرآن ما يبدو أنه مخالف لذلك، لكنه في الحقيقة روعي فيه جانب المعنى لا اللفظ. وتعددت في هذه المواضع أقوال المفسرين، ومما لاشك فيه أن مخالفة المطابقة بين الضمير ومرجعه مقصود لأغراض بلاغية ودلالية، فأسلوب القرآن الكريم محكم معجز، يحمل المتلقين على التدبر والتفكر في معانيه وألفاظه. ومن المواضع التي ورد فيها عدم المطابقة في العدد بين الضمير ومرجعه مايأتي:

أ- إفراد الضمير :

يفرد الضمير العائد إلى (من)الموصولة أو الشرطية حين يراعى لفظها، فلفظها مفرد، أما معناها فقد يكون مثنى أو جمعا، ومن المواضع التي روعي فيها لفظ (من)الشرطية قوله تعالى : {وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ} [الزخرف:٣٦] حيث يرى ابن عاشور أن الضمير في (له) جاء مفردا؛ لأن لكل واحد ممن تحقق فيهم الشرط شيطانا، وليس لجميعهم شيطان واحد؛ ولذلك سيجيء في قوله {قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ} [الزخرف:٣٨] بالإفراد، أي قال كل من له قرين لقرينه[٦٨].

وقد يأتي الضمير مفردا حملا على اسم الإشارة كما في قوله تعالى : {وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً} (النساء : ٤) أي فإن طابت أنفسهن لكم بشيء من المذكور، وأفرد ضمير منه لتأويله بالمذكور حملا على اسم الإشارة[٦٩].

وقد يكون العنصر الإشاري جمعا، والضمير العائد إليه مفردا كما في قوله تعالى : {...حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جاءتها ريح عاصف...} (يونس : ٢٢) فالضمير المفرد في (جاءتها)عائد إلى الفلك؛ لأن جمع غير العاقل يعامل معاملة المفرد المؤنث[٧٠].

وقد يُذكر مرجعان إشاريان ويعود الضمير مفردا على أحدهما دون الآخر مراعاة للمعنى كما في قوله تعالى : {يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ} (التوبة : ٦٢) يقول ابن عاشور : " وإنّما أفرد الضمير في قوله : (أن يرضوه) مع أنّ المعاد اثنان؛ لأنّه أريد عود الضمير إلى أول الاسمين، واعتبار العطف من عطف الجمل بتقدير : واللَّهُ أحقّ أن يرضوه ورسولُه كذلك ، فيكون الكلام جملتين

العدد ٥٢

١٢ربيع الثاني ١٤٣٩هـ

٣١ كانون الاول ٢٠١٧م

ثانيتهما كالاحتراس وحذفُ الخبر إيجاز والضمير المنصوب في (يرضوه) عائد إلى اسم الجلالة، لأنّه الأهمّ في الخبر، ولذلك ابتدىء به."[٧١]

ومثله قوله تعالى : {وَإِذَا دُعُوْا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ} (النور : ٤٨) إذ جعل الدعاء إلى الله ورسوله كليهما مع أنهم دعوا إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لأن حكم الرسول حكم الله؛ لأنه لا يحكم إلا عن وحي. ولهذا الاعتبار أفرد الضمير في قوله : (ليحكم) العائد إلى أقرب مذكور ولم يقل: ليحكما[٧٢].

كما نجد ذلك في قوله تعالى :{وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِماً قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَازِقِينَ } (الجمعة : ١١) إذ يرى ابن عاشور أن ضمير (إليها) عائد إلى التجارة ؛لأنها أهم عندهم من اللهو، ولأن الحدث الذي نزلت الآية عنده هو مجيء عِير دحية من الشام. واكتفى به عن ضمير اللهو، وتأنيث الضمير في قوله (إليها) تغليب للفظ تجارة ؛ لأن التجارة كانت الداعي الأقوى لانفضاضهم[٧٣].

ب ـ جمع الضمير:

من الظواهر الأسلوبية التي تميزت بها الإحالة بضمير الغيبة في القرآن ظاهرة جمع الضمير على الرغم من أن مرجعه لايدل دلالة حقيقية على الجمع، ولذلك دلالة أسلوبية، فقد يكون العنصر الإشاري نكرة دالة على العموم؛ فيكون ذلك سببا للجمع نحو قوله تعالى : {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ} (الأنعام :٦١، ٦٢) فالضمير في قوله:(ردوا) عائد إلى (أحد) باعتبار تنكيره الصادق بكل أحد، أي ثم يرد المتوفون إلى الله[٧٤].

وأيضا في قوله تعالى : {إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ} (الكهف: ٢٠) فضمير(إنهم) عائد إلى ما أفاده العموم في قوله (ولايشعرن بكم أحدا) فصار (أحدا) في معنى جميع الناس على حكم النكرة في سياق شبه النهي[٧٥].

وقد يجمع الضمير العائد إلى مفرد لإرادة الجنس نحو قوله تعالى : {إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ. وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى الْغَىِّ ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ} (الأعراف: ٢٠١،٢٠٢) يجوز أن يعود الضميران في (وإخوانهم ، ويمدونهم)

إلى الشيطان المذكور آنفاً باعتبار إرادة الجنس أو الأتباع، فالمعنى وإخوان الشياطين أي أتباعهم كقوله : { إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين } (الإسراء : ٢٧) أما الضميران المرفوعان في قوله : (يُمدونهم)وقوله : (لا يُقصرون) فهما عائدان إلى ما عاد إليه ضمير (إخوانهم) أي الشياطين، وإلى هذا مال الجمهور من المفسرين[٧٦]. يقول الزمخشري : " فإن قلت : لم جمع الضمير في إخوانهم والشيطان مفرد ؟ قلت : المراد به الجنس كقوله : أولياؤهم الطاغوت[٧٧].

كما يُجمع الضمير العائد إلى مثنى لغرض دلالي أيضا يتمثل في رعاية المعنى، وذلك نحو قوله تعالى : {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا} (الحجرات:٩) إذ يعود ضمير (اقتتلوا) على (طائفتان) باعتبار المعنى؛ لأن طائفة ذات جمع، والطائفة الجماعة"[٧٨]. يقول الألوسي : " والعدول إلى ضمير الجمع لرعاية المعنى، فإن كل طائفة من الطائفتين جماعة، فقد روعي في الطائفتين معناهما أولا، ولفظهما ثانيا على عكس المشهور في الاستعمال، والنكتة في ذلك ماقيل أنهم أولا في حال القتال مختلطون، فلذا جمع أولا ضميرهم، وفي حال الصلح متميزون متفارقون، فلذا ثنى الضمير"[٧٩].

ومثل ذلك قوله تعالى: {هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ} (الحج : ١٩) فاسم الخصم يطلق على الواحد وعلى الجماعة إذا اتحدت خصومتهم كما في قوله تعالى: { وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ} (ص : ٢١) فلمراعاة تثنية اللفظ أتي باسم الإشارة الموضوع للمثنى ولمراعاة العدد أتي بضمير الجماعة في قوله تعالى: ({اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ} [٨٠]. فالمعنى أن التحاكم بين اثنين، ولايمتنع أن يصحبهما غيرهما، وأطلق على الجميع خصم، وعلى الفريقين خصمان؛ لأن من جاء مع متخاصم لمعاضدة، فهو في صورة خصم، ولايبعد أن تطلق عليه التسمية[٨١].

أما قوله تعالى: {وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ} (الأنبياء : ٧٨) فيرى بعض المفسرين أن إضافة (حكم) إلى ضمير الجمع باعتبار اجتماع الحاكم والمتحاكمين[٨٢]. وبعضهم الآخر يرى أن الضمير يعود إلى داوود وسليمان خاصة؛ لأنهما هما اللذان حكما، ولأنه أعاد عليهما ضمير التثنية في

العدد ٥٢

١٢ربيع الثاني ١٤٣٩هـ

٣١ كانون الاول ٢٠١٧م

(يحكمان) وجمع الضمير؛ لأن الاثنين جمع، "وفيه جواز إطلاق الجمع على الاثنين، وهو مذهب طائفة من أهل العربية كالزمخشري والرضي وتقدمهما الفراء"[٨٣].

وقد يكون مرجع الضمير نكرة واقعة في سياق النفي، فيجمع الضمير رعاية للمعنى دون اللفظ لدلالة المرجع على العموم ، نحو قوله تعالى : { وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ }(الأحزاب ٣٦) فمؤمن ومؤمنة لما وقعا في حيز النفي يعمان جميع المؤمنين والمؤمنات، فلذلك جاء ضميرهما ضمير جمع ؛ لأن المعنى : ماكان لجمعهم ولا لكل واحد منهم الخيرة كماهو شأن العموم[٨٤].

وقد يُجمع الضمير لتعميم الأمر لأهميته، وذلك نحو قوله تعالى : {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ} (البقرة ١٨٩) يقول ابن عاشور : "وجمع الضمير في قوله (يسألونك) مع أن المروي أن الذي سأله رجلان ؛ نظراً لأن المسؤول عنه يهم جميع السامعين أثناء تشريع الأحكام؛ ولأن من تمام ضبط النظام أن يكون المسؤول عنه قد شاع بين الناس واستشرف كثير منهم لمعرفته سواء في ذلك من سأل بالقول ومن سأل في نفسه"[٨٥]، وعلى ذلك ينزل الحاضرون المترقبون للجواب منزلة السائل ، ويرى ابو حيان أن الاثنين قد يعاملان معاملة الجمع على سبيل الاتساع والمجاز[٨٦].

ج ـ جمع الضمير بعد إفراده:

من الظواهر الأسلوبية لاستعمال ضمائر الغيبة في القرآن أنها قد تأتي أولا بصيغة الإفراد، ثم يستأنف الكلام بصيغة الجمع، وهذا لايخلو من دلالة وأثر في المعنى المراد. وقد تطرق المفسرون إلى هذه الظاهرة ومنهم ابن عاشور، ففي قوله تعالى : { بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ}

(البقرة : ١١٢) نلاحظ أن الضمير ورد أولا بصيغة الإفراد (وجهه ـ وهو ـ له ـ أجره ـ ربه) ثم تحول إلى صيغة الجمع (عليهم ـ هم يحزنون) ويعلق ابن عاشور على ذلك بقوله : "وجُمع الضمير في قوله (ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) اعتبارا بعموم (من) كما أُفرد الضمير في قوله: (من أسلم وجهه لله وهو محسن) اعتبارا بإفراد اللفظ ، وهذا من تفنن العربية لدفع سآمة التكرار[٨٧]. فقد يُفرد الضمير مراعاة للفظ، ويجمع مراعاة للمعنى، والأفصح أن يبدأ أولا بالحمل على اللفظ ثم بالحمل على المعنى. كما في

العدد ٥٢

١٢ربيع الثاني ١٤٣٩هـ

٣١ كانون الاول ٢٠١٧م

قوله تعالى : {مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ} (سورة الحجر: ٥) حيث أنّث مفرداً ضمير الأمّة مرة مراعاة للفظ، وجُمع مذكراً مراعاة للمعنى[٨٨].

من ذلك قوله تعالى : {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ} (الجن ٢٦، ٢٨) حيث جيء بضمير الإفراد في قوله : (من بين يديه ومن خلفه) مراعاة للفظ (رَسول) ثم جيء له بضمير الجمع في قوله :(أن قد أبلغُوا) مراعاة لمعنى رسول وهو الجنس ، أي الرسل[٨٩] .

وفي قوله تعالى: { وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلا يُقْبَلُ مِنْها شَفاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْها عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ } (البقرة ٤٨) وقع العنصر الإشاري (نفس) نكرة في سياق النفي دالة على العموم ، فجاز أن يعود الضمير إليها مفردا ومجموعا، حيث عاد مفردا في قوله (منها) في الموضعين، ثم مجموعا مذكرا في قوله (هم ينصرون) فعاد بذلك إلى معنى (نفس) لأن النفوس المنكرة دلت على النفوس الكثيرة، وذكر الضمير الراجع إليها؛ لأنها بمعنى العباد والأناسي[٩٠].

وظهرت الإحالة الضميرية على خلاف مقتضى الظاهر أيضا في قوله تعالى : {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّآ أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ فلما أضاءت ماحوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لايبصرون} (البقرة:١٧) إذ مقتضى الظاهر أن يقول : (ذهب الله بنوره وتركه) لكنه جمع الضمير فقال: (ذهب الله بنورهم وتركهم) فتعددت آراء المفسرين في دلالة جمع الضمير غير أن الرازي يرى أن الأقوى أن المنافقين وذواتهم لم يشبهوا بذات المستوقد حتى يلزم منه تشبيه الجماعة بالواحد، وإنما شبهت قصتهم بقصة المستوقد، وهذا ماذهب إليه ابن عاشور ايضا، إذ يرى أن دلالة جمع الضمير في قوله : (بنورهم) مع كونه بلصق الضمير المفرد في قوله : (ما حوله) مراعاة للحال المشبهة، وهي حال المنافقين لا للحال المشبه بها؛ وهي حال المستوقد الواحد على وجه بديع في الرجوع إلى الغرض الأصلي، وهو انطماس نور الإيمان منهم، فهو عائد إلى (المنافقين) لا إلى (الذي) قريباً من رد العجز على الصدر[٩١].

وقد يسبب الفصل في الكلام تخالف الضمائر إضافة إلى مراعاة اللفظ والمعنى نحو قوله تعالى : {وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلاَ أَن قَالُو إنا كنا ظالمين}(الأعراف٥، ٤) حيث أجرى الضّميران في قوله : (أهلكناها فجاءها بأسنا) على الإفراد والتّأنيث مراعاة للفظ (قرية) ليحصل التماثل بين لفظ المعاد ولفظ ضميره في كلام متّصل القرب، ثمّ أجريت ضمائر القرية على صيغة الجمع في الجملة المفرعة عن الأولى في قوله :(أو هم قائلون فما كان دعواهم إذ جاءهم ...) لحصول الفصل بين الضّمير ولفظ معاده بجملة فيها ضمير معاده غير لفظ القرية، وهو (بأسنا بياتا) لأنّ (بياتا) متحمّل لضمير البأس، أي مبيّتاً لهم، وانتقل منه إلى ضمير القرية باعتبار أهلها فقال : (أو هم قائلون فما كان دعواهم إذ جاءهم)[٩٢].

سادسا :تذكير الضمير وتأنيثه:

تعتبر الإحالة علاقة دلالية، ومن ثم لاتخضع لقيود نحوية إلا أنها تخضع لقيد دلالي، وهو وجوب تطابق الخصائص الدلالية بين العنصر المحيل والعنصر المحال إليه[٩٣]، والمقصود بتطابق الخصائص الدلالية التطابق في العدد والنوع، وهذا التطابق نجده في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، والمواطن التي تبدو مخالفة لذلك، وهي ليست بكذلك إنما هي مواطن حملت على المعنى، وقد أشار المفسرون إلى هذه المواطن، ومنها قوله تعالى :" كلا إنها تذكرة فمن شاء ذكره" (١١ ، ١٢ عبس) فالضمير في (إنها تذكرة) عائد إلى الآيات التي قرأها عليهم النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك المجلس، ثم أعيد عليها الضمير بالتذكير للتنبيه على أن المراد آيات القرآن، ويؤيد هذا الوجه قولُه تعالى عقبه : (قتل الإنسان ما أكفره)حيث ساق لهم أدلة إثبات البعث .فكان تأنيث الضمير نكتةً خصوصية لتحميل الكلام هذه المعاني[٩٤].

والضمير الظاهر في قوله : (ذكره) يجوز أن يعود إلى (تذكرة)لأن مَا صَدْقَها القرآن الذي كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يعرضه على صناديد قريش قُبيل نزول هذه السورة، أي فمن شاء ذكرَ القرآن وعمل به .ويجوز أن يكون الضمير عائداً إلى الله تعالى فإن إعادة ضمير الغيبة على الله تعالى دون ذِكر معاده في الكلام كثير في القرآن

لأن شؤونه تعالى وأحكامه نزل القرآن لأجلها، فهو ملحوظ لكل سامع للقرآن، أي فمن شاء ذكر الله وتوخّى مرضاته[٩٥].

وإذا كان ابن عاشور قد جوز رأيين في معاد الضمير في قوله (ذكره) فإن أغلب المفسرين رأوا أن الضمير يعود إلى (تذكرة) لأنها في معنى الذكر أو القرآن أو الوعظ[٩٦].

وفي قوله تعالى: {فَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ ضُرٌّ دَعانا ثُمَّ إِذا خَوَّلْناهُ نِعْمَةً مِنَّا قالَ إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ} (الزمر: ٤٩) نلاحظ أن الضمير في (أوتيته) جاء مذكرا وهو للنعمة ذهابا به إلى المعنى كما يرى المفسرون، لتأويل النعمة بشيء من النعم، والقرينة على ذلك التنكير، وقيل لأنها بمعنى الأنعام، وقيل لأن المراد بها المال، وقيل لأنها تشتمل على مذكر ومؤنث، فغلب المذكر، وجوز المفسرون أن يكون الضمير عائد إلى (ما) على أنها موصولة، وهي مهيئة لذلك، فذكر أولا في أوتيته على المعنى، ثم عاد إلى اللفظ فأنث في قوله : (بل هي)[٩٧]. أما ابن عاشور فيرى أن تذكير الضمير في قوله (أوتيته) وهو عائد إلى (نعمة) على تأويل حكاية مقالتهم بأنها صادرة منهم في حال حضور مابين أيديهم من أنواع النعم، فهو من عود الضمير إلى ذات مشاهدة، فالضمير بمنزلة اسم الإشارة[٩٨].

ويرى المفسرون في قوله تعالى : {وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ ءَاتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ}(الأنبياء: ٧٨، ٧٩) أن تأنيث الضمير في قوله : (ففهمناها) ولم يتقدم لفظ معاد مؤنث اللفظ على تأويل الحكم، في قوله تعالى : (لحكمهم) بمعنى الحكومة أو الفتوى المفهومة من السياق[٩٩].

وقد يؤنث الضمير بسبب إضافة العنصر الإشاري إلى مؤنث، وذلك كما في قوله تعالى {يابُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى السَّمَوَاتِ أَوْ فِى الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ} (سورة لقمان : ١٦) فتأنيث الضمير في قوله (بها) مع أن (مثقال) لفظ غير مؤنث؛ لأنه أضيف إلى حبة، فاكتسب التأنيث من المضاف إليه، وهو استعمال كثير إذا كان المضاف لو حذف لما اختل الكلام بحيث يُستغنى بالمضاف إليه عن المضاف[١٠٠].

ويعود ضمير الغائب المذكر على لفظ مؤنث في قوله تعالى أيضا :{ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ .فَمَن بدله بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}. (البقرة : ١٨٠) وحمل المفسرون هذه الإحالة على المعنى، فالضمائر البارزة في (بدله وسمعه وإثمه ويبدلونه) عائدة إلى القول أو الكلام الذي يقوله الموصي ودل عليه لفظ (الوصية) (البقرة : ١٨٠) وقد أكد ذلك بما دل عليه قوله (سَمِعَهُ) إذ إنما تسمع الأقوال، وقيل هي عائدة إلى الإيصاء المفهوم من قوله : (الوصية)[١٠١].

وقد يؤنث الضمير ثم يُذكر، وهو راجع في الحالين إلى عنصر إشاري واحد في آية واحدة وذلك حين يحمل على المعنى وعلى اللفظ، والمتكلم على الخيرة فيهما، وذلك نحو قوله تعالى : {مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ} (فاطر :٢) حيث جاء الضمير مؤنثا في (لها) مراعاة لبيان (ما) في قوله : (من رحمة) لقربه، وذكر في (له) مراعاة للفظ المرجوع إليه (ما) لأنه لاتأنيث فيه ، ولأن الأول فُسر بالرحمة فحسن اتباع الضمير للتفسير، ولم يفسر الثاني، فترك على أصل التذكير[١٠٢]. ويرى ابن عاشور أن تذكير الضمير هنا لإنزاله منزلة اسم الإشارة ، فهو من عود الضمير على ذات مشاهدة، وذلك على تأويل مقالتهم بأنها صادرة منهم في حال حضور مابين أيديهم من أنواع النعم[١٠٣].

وقد يرد ضمير الغيبة في القرآن الكريم مرة مذكرا ومرة أخرى مؤنثا والمرجع واحد في آيتين مختلفتين، وذلك في قوله تعالى :{ وَإِنَّ لَكُمْ فِى الأنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُمْ مِّمَّا فِى بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِلشَّارِبِينَ} (النحل : ٦٦) وفي سورة المؤمنون يقول تعالى : {وَإِنَّ لَكُمْ فِى الأنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُمْ مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ. وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ} (المؤمنون: ٢١، ٢٢) ويرى المفسرون أن التأنيث والتذكير باعتبار وجهين، إذ أعاد الضمير مذكرا مراعاة للجنس، فلفظ (الأنعام) مفرد وضع لإفادة الجمع كالرهط والقوم، فيكون ضميره ضمير الواحد، وهو التذكير باعتبار اللفظ، وجاء الضمير مؤنثا في (بطونها) دالا على الجمع باعتبار المعنى، أي جماعة

العدد ٥٢

١٢ربيع الثاني ١٤٣٩هـ

٣١ كانون الاول ٢٠١٧م

الأنعام.[١٠٤]. يقول ابن عاشور : " وإفراد ضمير الأنعام في قوله تعالى مما في بطونه مراعاة لكون اللفظ مفردا؛ لأن اسم الجمع لفظ مفرد، إذ ليس من صيغ الجموع ، فقد يراعى اللفظ فيأتي ضميره مفردا ، وقد يراعى معناه فيعامل معاملة الجموع "[١٠٥].

نتائج البحث :

تعد الإحالة بضمائر الغيبة في القرآن الكريم مظهرا من مظاهر الاقتصاد اللغوي؛ لأنها تُغني عن إعادة ذكر العناصر الإشارية، إذ تقوم بعملية الربط بطريقتين : باستحضار عنصر متقدم في خطاب سابق، أو باستحضار مجموع خطاب سابق في خطاب لاحق، وإذا كان النص القرآني قد تفرد بأنواع خاصة من الإحالة بضمائر الغيبة ـ كما رأينا في البحث السابق ـ فإنه أيضا قد تميز بظواهر أسلوبية تخص هذا النوع من الإحالة كان لها بالغ الأثر في إثراء النص دلاليا وفي تماسكه وانسجامه. وقد تطرق ابن عاشور إلى هذه الظواهر، فتتبعتها الباحثة في تفسيره، وتوصلت إلى النتائج الآتية:

١ـ تميز الاستعمال القرآني لضمائر الغيبة بظاهرة الاتساع الإحالي أو تعدد مرجع الضمير، وقد تناولها ابن عاشور، وأطلق عليها مصطلح تعدد المحامل أو الاحتمالات، ورأى أن الغاية منها تكثير المعاني بكثرة الاحتمالات. فالاختلاف في مرجع الضمير يحقق ثراء دلاليا مقصودا، ويظهر التماسك الدلالي للنص.

٢ـ جوز ابن عاشور تعدد المحامل في مواضع من القرآن الكريم دون ترجيح أحد المحامل على الآخر، لكنه في مواضع أخرى رجح أحد المحامل اعتمادا على القرائن الدلالية والنحوية الآتية: تناسق الضمائر ـ السياق اللغوي ـ المقام ـ القرب ـ تعميم الحكم، وهذه القرائن التي اعتمد عليها ابن عاشور لتحديد المحال إليه أكد عليها علماء لغة النص.

٣ـ تميزت الإحالة بضمائر الغيبة في القرآن بظاهرة العدول من ضمائر الغيبة إلى الخطاب والعكس، أو من ضمائر المتكلم إلى الغيبة والعكس، وقد تناول ابن عاشور هذه الظاهرة مبينا دلالتها وأغراضها البلاغية.

العدد ٥٢
١٢ربيع الثاني ١٤٣٩هـ
٣١ كانون الاول ٢٠١٧م

٤ــ تميز الاستعمال الأسلوبي لضمائر الغيبة في القرآن الكريم بظاهرة الاستخدام أي عود الضمير على اللفظ مع مدلول آخر، وهذه الظاهرة لها غرضها الأسلوبي المتمثل في إثراء الدلالة، والتفنن في الأسلوب.

٥. يعد تشابه الضمائر واختلاف المعاد من الظواهر الأسلوبية للإحالة القرآنية، وأبرز ابن عاشور دور قرينة السياق حين تتشابه الضمائر في إحالة العناصر الإحالية إلى مراجعها الإشارية، ورأى أنه لاضير من تشتيت الضمائر إذا كان السياق يرجع كل ضمير إلى ماينا سبه.

٦. قد يأتي الضمير مفردا على الرغم من أن مرجعه لايدل دلالة حقيقية على الإفراد ، وذلك لدلالات تتمثل في : تعدد المعنى، أو الحمل على اسم الإشارة، أو إرادة أحد العنصرين الإشاريين دون غيره لأهميته .

٧. أورد ابن عاشور وكثير من المفسرين دلالات كثيرة لظاهرة جمع الضمير على الرغم من أن مرجعه لايدل دلالة حقيقية على الجمع، من هذه الدلالات : تنكير العنصر الإشاري ، والنكرة تدل على العموم ، فجاز بذلك جمع الضمير المحيل على نكرة. دلالة العنصر الإشاري على الجنس، أو لرعاية المعنى، أوتعميم الأمر لأهميته، أو مراعاة الحال المشبهة، أو لدلالة العنصر الإشاري على المفرد لفظا وعلى الجمع معنى.

٨. تطرق ابن عاشور إلى ظاهرة عدم المطابقة بين الضمير ومرجعه تذكيرا وتأنيثا، ورأى أن المواطن التي وردت فيها هذه الظاهرة الأسلوبية هي مواطن حُملت على المعنى، أو لإنزال الضمير منزلة اسم الإشارة ، أو مراعاة للفظ (من)الموصولة أو الشرطية.

ومن النتائج السابقة يمكننا القول : إن ابن عاشور وكثيرا من المفسرين في تحليلاتهم للنص القرآني قد أكدوا على دور المتلقي في تحديد مرجعية الضمير، واستعانوا بالقرائن التي تعين على ذلك، واهتموا بتوجيه الضمير توجيها يضمن اتساق الخطاب القرآني كما يضمن في الوقت نفسه مناسبة الكلام لسياق الحال أو المقام، وهذه القضايا اهتم بها علم اللغة النصي.

الهوامش:

[١] ـ بحث منشور في مجلة آداب الجامعة المستنصرية ، العدد ٧٣ ، ٢٠١٦م.
[٢] ـ فالانسي ، جيزيل: النقد النصي، تر: رضوان ظاظا ، عالم المعرفة ،العدد ٢٢١ ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ١٩٩٧م، ص ٢٤٧، ٢٤٨
[٣] ـ بحيري ، سعيد : دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة ، مكتبة الآداب ، ط١ ، القاهرة ٢٠٠٥م ، ص ٩٨
[٤] ـ المرجع نفسه ص ٩٩ ، ١٠٠
[٥] ـ الفقي ،صبحي إبراهيم : علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، دار قباء ، ط١ ، القاهرة ٢٠٠٠م ، ج١ ص ١٥١
[٦] ـ صبرة ،محمد حسنين : مرجع الضمير في القرآن الكريم ، دار غريب ، ط٢ ، القاهرة ٢٠٠١م ،ص ٢٥ ، ٢٦
[٧] ـ ابن عاشور : التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر والتوزيع ، الطبعة التونسية ، تونس ١٩٩٧م ، ١٥ / ٢٢
[٨] ـ محمد عبد الخالق عضيمة : دراسات لأسلوب القرآن الكريم ، مطبعة حسان ، د. ت ، ق٣ ج١ ص ٨٠
[٩] ـ ابن عاشور : التحرير والتنوير ٢ / ٣٩ ، ٤٠
[١٠] ـ المرجع نفسه ٥ / ٨٩
[١١] ـ المرجع نفسه ١٢ / ٢٧٨، ٢٧٩
[١٢] ـ المرجع نفسه ١ / ٤٣٣
[١٣] ـ المرجع نفسه ٢/ ٣٠٨
[١٤] ـ المرجع نفسه ١٣ / ٣٤ ، ٣٥
[١٥] ـ الزمخشري : الكشاف ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، د. ت ، ٣ / ٦٣
[١٦] ـ الأندلسي، أبو حيان : البحر المحيط ، دار الفكر ١٩٨٣م ، ٨ / ٥٢
[١٧] ـ التحرير والتنوير ٢٤ / ٢٢٠
[١٨] ـ المرجع نفسه ١٥ / ٣٣١
[١٩] ـ المرجع نفسه ١ / ٥٦٩
[٢٠] ـ المرجع نفسه ١٨ / ٩٠
[٢١] ـ المرجع نفسه ٧ / ٢٤٨ ، ٢٤٩
[٢٢] ـ المرجع نفسه ١٠ / ٢٤٨
[٢٣] ـ المرجع نفسه ١٠ / ٦٠
[٢٤] ـ المرجع نفسه ١ / ٥٦٩
[٢٥] ـ المرجع نفسه ٦/ ٢٤
[٢٦] ـ المرجع نفسه ٦ / ٢٥
[٢٧] ـ دايك،فان : علم النص مدخل متداخل الاختصاصات ، تر: سعيد بحيري، دار القاهرة ، ط٢ ، القاهرة ٢٠٠٥م، ص ١١٦
[٢٨] ـ التحرير والتنوير ١٧ / ٧٠ ، ٧١
[٢٩] ـ حسان، تمام : البيان في روائع القرآن ، مكتبة الأسرة ، القاهرة ٢٠٠٣م ، ٢ / ٣٦
[٣٠] ـ التحرير والتنوير ٢١ / ٢١٦
[٣١] ـ المرجع نفسه ١٠ / ١٨٥
[٣٢] ـ المرجع نفسه ١٢ / ٢٤٢
[٣٣] ـ المرجع نفسه ١ / ٢٩٨
[٣٤] ـ المرجع نفسه ١ / ٢٩٨

[٣٥] ـ المرجع نفسه ٣ / ٩٠
[٣٦] ـ المرجع نفسه ٥ / ٤٧
[٣٧] ـ المرجع نفسه ١ / ٤٦٠ ، ٤٦٢
[٣٨] ـ المرجع نفسه ١ / ٤٧٩
[٣٩] ـ المرجع نفسه ٨ / ١٣٩ ، ١٤٠
[٤٠] ـ حسان، تمام : اللغة العربية معناها ومبناها ، عالم الكتب ، ط٤ ، القاهرة ٢٠٠٤م ، ص ٢١٨
[٤١] ـ القزويني، الخطيب : الإيضاح في علوم البلاغة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٥ ص ٧٢
[٤٢] ـ السامرائي ،فاضل : لمسات بيانية في نصوص من التنزيل ، دار عمار للنشر، ط٣، عمان ٢٠٠٣م ، ص ٤٧
[٤٣] ـ التحرير والتنوير ٧ / ١٣٣ ، ١٣٤
[٤٤] ـ المرجع نفسه ١/ ٥٩٩
[٤٥] ـ المرجع نفسه ٩ / ٢١٨
[٤٦] ـ المرجع نفسه ٩ / ٢٩٨
[٤٧] ـ المرجع نفسه / ١٣٤
[٤٨] ـ المرجع نفسه ٨ / ٣٩
[٤٩] ـ المرجع نفسه ١٤ / ٣١٧
[٥٠] ـ المرجع نفسه ١٩ / ٤١ ، ٤٢
[٥١] ـ المرجع نفسه ٢٠ / ١٧٣
[٥٢] ـ الجرجاني ،علي بن محمد : التعريفات ، تح : إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط١ ، ١٤٠٥هـ ، ١ / ٧٢
[٥٣] ـ التحرير والتنوير ٧ / ٦٩
[٥٤] ـ المرجع نفسه ١٨ / ٢٣
[٥٥] ـ المرجع نفسه ٤ / ٥٩
[٥٦] ـ المرجع نفسه ٤ / ١٠٩
[٥٧] ـ المرجع نفسه٧ / ٦٩
[٥٨] ـ المرجع نفسه ٥ / ١٤٧
[٥٩] ـ التحرير والتنوير ٥ / ١٤٧
[٦٠] ـ المرجع نفسه ١٩ / ١٩١ ، ١٩٢
[٦١] ـ الإتقان في علوم القرآن ١ / ٥٥٠
[٦٢] ـ التحرير والتنوير ٢٦/ ١٣
[٦٣] ـ المرجع نفسه ٧ / ٨ ، ١٣٩
[٦٤] ـ المرجع نفسه ١٧ / ٩٨
[٦٥] ـ المرجع نفسه ٢٨ / ٩٢
[٦٦] ـ المرجع نفسه ١١ / ٢٠٥
[٦٧] ـ المرجع نفسه ١٦ / ١٦٤
[٦٨] ـ المرجع نفسه ٢٥ / ٢٠٩
[٦٩] ـ المرجع نفسه ٤ / ٢٣١
[٧٠] ـ المرجع نفسه ١١ / ١٣٧
[٧١] ـ المرجع نفسه١٠ / ٢٤٥
[٧٢] ـ المرجع نفسه ١٨/ ٢٧٠
[٧٣] ـ المرجع نفسه ٢٨ / ٢٢٩
[٧٤] ـ المرجع نفسه ٧ / ٢٧٩
[٧٥] ـ المرجع نفسه ١٥ / ٢٨٦

[٧٦] ـ المرجع نفسه ٩ / ٢٣٥
[٧٧] ـ الكشاف ٢ / ١٩١
[٧٨] ـ التحرير والتنوير ٢٦/ ٢٣٩
[٧٩] ـ الألوسي : روح المعاني، تح : علي عبد الباري عطية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٣/ ٣٠١
[٨٠] ـ التحرير والتنوير١٩ / ٢٢٩
[٨١] ـ البحر المحيط ٩ / ١٤٧
[٨٢] ـ الكشاف ٣ / ١٢٨ ، روح المعاني ٩ / ٧١ ، البحر المحيط ٦ / ٢٤١ ، التحرير والتنوير ١٧ / ١١٨
[٨٣] ـ الشوكاني ،محمد بن علي : فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ، تح : عبدالرحمن عميرة ، دار الوفاء ، المنصورة، ط١، ١٩٩٤م، ١٥ / ٦٩
[٨٤] ـ التحرير والتنوير٢٢/ ٢٨، الكشاف ٣ / ٥٤٠ ، روح المعاني ١١ / ٢٠٢ ،
[٨٥] ـ المرجع نفسه٢ / ١٩٤
[٨٦] ـ البحر المحيط ٢/ ٣٠
[٨٧] ـ التحرير والتنوير ١ / ٦٧٥
[٨٨] ـ المرجع نفسه ١٤ / ١٥
[٨٩] ـ المرجع نفسه ٢٩ / ٢٥٠
[٩٠] ـ المرجع نفسه ١ / ٤٨٥ ، الكشاف ١ / ١٣٧
[٩١] ـ المرجع نفسه ١ / ٣٠٨ ، ٣٠٩
[٩٢] ـ المرجع نفسه ٨ / ١٩
[٩٣] ـ خطابي محمد : لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب ، المركز الثقافي العربي ، ط ٢، بيروت ٢٠٠٦م، ص ١٧
[٩٤] ـ التحرير والتنوير ٣٠ / ١١٥
[٩٥] ـ المرجع نفسه ٣٠ / ١١٥
[٩٦] ـ انظر الكشاف ٤ / ٧٠٢ ، روح المعاني ١٥ / ١٤٩ ، البحر المحيط ٨/ ٣٢١ ، مفاتيح الغيب
[٩٧] ـ البحر المحيط ٦ / ٢٤٠ ، الكشاف ٤ / ١٣١
[٩٨] ـ التحرير والتنوير ٢٤ / ٣٥
[٩٩] ـ التحرير والتنوير١٧ / ، ١١٨الكشاف ٣ / ١٢٨ ، البحر المحيط ٦/ ٢٤٠ ، روح المعاني ٩ / ٧١ ،
[١٠٠] ـ التحرير والتنوير ٢١ / ١٦٢
[١٠١] ـ المرجع نفسه٢ / ١٥٢
[١٠٢] ـ التحرير والتنوير ٢٢ / ٢٥٣الكشاف ، ٣ / ٥٩٦ ، البحر المحيط ٩ / ١٢ ، روح المعاني ١١ / ٣٣٩ ،
[١٠٣] ـ التحرير والتنوير ٢٤ / ٣٥
[١٠٤] ـ البحر المحيط ٥/ ٤١٤ ، مفاتيح الغيب ٢٠ / ٥٢
[١٠٥] ـ التحرير والتنوير ١٤ / ٢٠١ ، ٢٠٢

Abstract

Participle pronouns have exceedingly considerable attention throughout modern textual linguistic studies, that it is because their cohesive referential functions aiming to join the more far remote parts of the text.

In this respect, Qura'nic interpreters during the time do not turning a blind eye to such a topic when they have done their exegeses. Ibn A'ashur is one of those interpreters who has been practicing a huge analytical efforts concerning the referential correspondence between participle pronouns and their antecedents. He – exclusively- does not limit himself solely to the referential meaning that is occurring between participle pronouns and their antecedents but jumps a step further to the stylistic effects that those pronouns do.

The researcher has been trying to achieve the following goals:

1.Aiming to shed light on the role of referential correspondence between participle pronouns and their antecedents throughout Ibn A'ashur understanding to the Glorious Qur'an.
2.Explaining the stylistic effects that Ibn A'ashur derives from the distribution of participle pronouns across the holy text and the cohesive devices of these pronouns in order to achieve such effects.
The researcher reaches some results during his job such as: the Qur'anic usage of participle pronouns has achieved stylistic purposes that of widening , transmitting or aiming the actual meaning by using semantic transportation between different participle pronouns intentionally linked with their corresponding antecedents throughout the holy text.

العدد ٥٢

١٢ ربيع الثاني ١٤٣٩هـ
٣١ كانون الاول ٢٠١٧م